مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

بداءة المعنى في المضمر

دكتور عبد القادر فيدوح
جامعة مولاي الطاهر – الجزائر
afidouh@hotmail.com

مستخلص البحث:
سيكشفُ هذا البحثُ الميكانيزماتِ الخفيّةَ لتشكّلِ المعنى في المنطقةِ الهلاميّةِ التي تسبقُ التلفّظَ اللسانيّ، فيما يُصطلحُ عليه بـ **"سديم البداءة"**، حيثُ يتبدّى المعنى كإمكانٍ دلاليٍّ مستترٍ داخلَ الوعي قبلَ أنْ يمتثلَ لسطوةِ النسقِ اللغويّ. وتتجلّى هذه المقاربةُ الفينومينولوجيةُ في اعتبارِ "المضمر" فضاءً حيوياً تَتخلّقُ فيه الرؤيا كبنيةٍ حدسيةٍ تجمعُ الوجدانَ والذاكرةَ والخيال، مما يجعلُ الإبداعِ فعلَ كشفٍ حقيقيٍّ يُولّدُ المعنى قبلَ النطقِ به، ويُحرّرُ اللغةَ من وظيفتِها الأداتيةِ لتستحيلَ مِعراجاً إشراقياً يربطُ بين الذاتِ والوجود. ومن خلالِ تقاطعٍ معرفيٍّ يجمعُ بين تراثِ الجاحظِ في "طرحِ المعاني" وبين هيرمينوطيقا غادامير وسيميائية بيرس، يُثبتُ البحثُ أنَّ الفهمَ هو حدثٌ تأويليٌّ ينشأُ من تلاحمِ أفقِ الذاتِ بأفقِ النص، حيثُ يغدو الصمتُ والمضمرُ شريكينِ فاعلينِ في صياغةِ الخطاب، ومِرآةً تعكسُ أسرارَ الكينونةِ التي تعجزُ العبارةُ المباشرةُ عن استيعابِ فيضِها الوجودي.

الكلمات المفاتيح: المضمر، سديمُ البداءة، مهادُ الرؤيا، التأويلية، الإمكانُ الدلالي، التلفظ، السيميائية، تجلياتُ المعنى

1. فينومينولوجيا المضمر: سديم البداءة

يتسلّل المعنى بخفاء عبر طيات المضمر، فيسكن بين الحيز الظاهر والباطن، متخفيًا كسديم مستتر في فضاء البداءة، لا يُعرض للملفوظ مباشرة، ولا يُستنزف من خلال الأداء اللغوي السطحي؛ هنا، تتحرك الظواهر ببطء، وتتكشف التجربة عن ذاتها تدريجيًا في وعي متدرّج، إذ يصبح الإدراك بمثابة مرآة تعكس ما هو خفي، وتسمح برؤية التفاعلات الدقيقة بين الدال والمدلول، بين العلامة ومضمونها، في شبكة سيميائية متشابكة تتجاوز حدود الظاهر. وفي هذا السياق، ينطلق القول بأن الإبداع يمثل **لحظة اكتمال اللغة** حين تصل إلى حالة إدراك معمّق لطبيعة الفعل النقدي ذاته؛ فاللغة هنا ليست أداة نفعية تُستدعى لخدمة العمل، أو الإنتاج، أو السياسة، أو التداول اليومي، بل تصبح **فضاءً خالصًا** يحقق أقصى إمكاناته حين يتحرر من الاستعمال الأداتي، ويكشف عن قدرته الجوهرية على خلق المعنى، لا تكراره.لكن هذا الاكتمال، على الرغم من سموه الداخلي، لا يعني انفصال الإبداع عن الرؤية الفكرية، أو تحليقه فوق **الحياة؛ لأن أي سمو من هذا النوع يظل محض وهم فكري**، ويبعد اللغة عن وظيفتها التأويلية والكشفية؛ فالإبداع الحقيقي لا يعلو على الحياة، بل **يعلو على الابتذال** فقط؛ إذ إنَّ سقوطه في السطحية والفجور اللغوي يسلبه جوهره كفعل كشف وإضاءة، ويحوّله إلى إعادة إنتاج تقليدية للأفكار والمعاني، بدل أن يكون لحظة سيميائية - تأويلية تتجاوز حدود الدال لتصل إلى عمق المضمر ومعناه الخفي.يصبحُ الإبداعُ في هذا الأفق، فعل **توليد للمعنى قبل التلفّظ به**؛ لحظة

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

يتشكل فيها الإحساس، والفكرة، والرؤية في عمق الوعي، قبل أن تجد لغتها؛ لا تُلتقطُ الكلمة الإبداعية جاهزة من قاموس الحياة اليومية، بل تُختمر في باطن التجربة، أو من باطل اللاوعي، وتُعاد صياغتها لتستعيد دهشتها الأولى. من هنا، لا تُقاس قيمة الرؤية الفنية بمدى اقترابها من مفردات العيش اليومي، بل بقدرتها على تحويل المألوف إلى رؤية، والعابر إلى كثافة دلالية. والمبدع، في هذا التصور، ليس تابعًا لضجيج المفردات، أو صدى للغة السائدة، بل هو ضمير المضمر حين يكون عاجزًا عن التعبير عن نفسه. إن تحويل اللغة إلى كونها تابعة لخطابات جاهزة، أو إلى مروّج لما يُظن أنه حقيقة نهائية، هو إفراغ للفعل الإبداعي من جوهره؛ لأن الإبداع لا يزدهر إلا في مناخ التأمل، حيث تُولد الفكرة في صمتها الأول، بعيدًا عن الإملاء والوصاية، ثم تتجسد اللغة بوصفها اختيارًا لا استجابة.

لا تُفهم العلاقة بين الفكرة واللغة في أفق هذا التصور، على أنها علاقة نقل أو ترميز لاحق، بل باعتبارها **سيرورة توليد**، تبدأ من الإمكان الدلالي وتنتهي – مؤقتًا – عند العلامة اللغوية. وفي ضوء ذلك، يتأسس **التوافق الرؤيوي اللغوي** في لحظة سابقة على التلفّظ، حيث تتشكل الرؤية داخل الوعي ككتلة من المعنى غير المعين، كتوتر داخلي بين التجربة والإدراك والوجدان، قبل أن تخضع لأي انتظام لغوي. يكون المعنى حاضرًا في هذا المستوى، بوصفه إمكانية، لا بوصفه دلالة جاهزة، ويكون الوعي منشغلًا باختبار حدوده وتأمل إمكاناته قبل أن يمنحها لغة.

هنا، يتقاطع هذا التصور بعمق مع السيميائية البراغماتية عند **بيرس** Charles Sanders Peirce، الذي لا يرى العلامة كعلاقة ثنائية بين دال ومدلول، بل كعملية ثلاثية تتضمن **الموضوع، والعلامة، والمفسِّر**. فالمعنى، وفق **"بيرس"**، لا يولد مع العلامة، بل ينشأ داخل فعل التأويل نفسه؛ أي داخل الوعي الذي يستقبل العلامة ويعيد إنتاجها دلاليًا. وبالقياس إلى ذلك، فإن الإمكان الدلالي يمثل المرحلة التي يسبق فيها ***المفسِّر*** العلامة، حيث تتكون البنية التأويلية داخليًا قبل أن تتخذ شكلًا لغويًا. واللغة، في هذا السياق، ليست أصل المعنى، بل إحدى محطاته، لحظة تعيين أولى داخل سلسلة لا نهائية من التأويلات.يتّضحُ من منظور التأويل الفلسفي عند غادامير Gadamer، أن الفهم لا ينكشف من خلال استحضار دلالات ثابتة أو مسبقة الصياغة، بل ينشأ في لحظة التفاعل الحيّ مع المضمر النصي، حيث تتلاقى طبقات الدال والمدلول في فضاء البداءة، ويصبح المعنى كسديم يتكوّن، ويتبدّد وفق حركة الوعي وتأويله. هنا، لا يُقاس الإدراك بثبات العلامات أو الظواهر، بل بقدرة اللغة على التحرر من وظيفتها الأداتية والدخول في فضاء خالص للكشف والإبداع، حيث تتبدى العلاقة بين النص والقارئ كحقل ديناميكي للمعنى، يكتسب فيه الفهم طبيعته التجريبية والتأملية، وليس طابعًا جامدًا أو مقصورًا على التداول اليومي أو المنطق البحت، بل عبر حدث ***تأويلي*** ينشأ من تلاقي الأفق الذاتي بأفق النص، أو التجربة. هذا **"الاندماج بين الآفاق"** لا يبدأ من اللغة كونها نظامًا جاهزًا، بل من استعداد داخلي للفهم، من تاريخية الوعي، ومن شبكة التوقعات والتجارب السابقة التي تشكل الخلفية الصامتة لأي معنى ممكن. يصبحُ الإمكان التّوليديّ الدّلاليّ في هذا الإطار، حالة سابقة على اللغة، يتكوّن فيها المعنى في حدود كونه احتمالًا مفتوحًا داخل الوعي، قبل أن يرتبط بدال أو صيغة لفظية، بحيث تولّد الفكرة لغتها الخاصة عند لحظة التعيين، لا أن تُستمدّ من لغة جاهزة. وفي هذا يكمن

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

المجال الذي تتكون فيه شروط الفهم قبل أن تُصاغ في لغة، وتغدو العبارة نتيجة لحوار داخلي سابق بين الذات ومعناها المحتمل. واللغة هنا لا تفرض المعنى، بل تكشف عنه في لحظة التحام، وتظل مفتوحة على إعادة الفهم والتأويل، وفي هذا الأفق، يتجسد المجال الذي تُستحضر فيه شروط الفهم قبل أن تتخذ شكل اللغة، حيث تصبح العبارة بمعزل عن كونها أداة للتعبير، بل أثرًا لارتعاش داخلي بين الذات وما يلوح في أفق معناها المحتمل. واللغة هنا لا تفرض واقعًا محددًا للمعنى، ولا تكتفي بعرض ما هو موجود، بل تُبرز لحظة اللقاء بين ما هو مدرك وما هو ممكن، فتكون فضاءً مفتوحًا لتشكّل الدلالات ولتعدد القراءات.يتكشّفُ في هذا الأفق التأويلي، المجال الذي تتكوّن فيه شروط فهم المضمرات قبل أن تتخذ شكلها اللغوي النهائي، حيث لا تعود العبارة وسيلة للتعبير عمّا هو جاهز، بل أثرًا لارتعاش داخلي ينشأ في المسافة بين الذات وما يلوح في أفق معناها الممكن. فاللغة، وفق هذا المنظور، لا تُسقط واقعًا ثابتًا على المعنى، ولا تكتفي بعرض ما هو معطى، بل تُنصت إلى لحظة اللقاء بين ما يُدرك وما يمكن أن يُفهم، لتغدو فضاءً مفتوحًا لتشكّل الدلالات وتعدّد القراءات، وحقلًا حيًا يتجدد فيه المعنى مع كل تجربة فهم.أسهمَ في هذا السياق، هانس جورج غادامير في إعادة تأسيس النظرة إلى اللغة في إطار كونها وسيطًا وجوديًا يتوسط العلاقة بين الإنسان والعالم داخل تجربة الفهم والتفاهم. يقومُ مشروعه التأويلي على ردّ الاعتبار للغة لا باعتبارها أداة تقنية أو نظامًا من العلامات الجاهزة، بل باعتبارها فعلًا إبداعيًا يحيط بالإنسان وبموجودات الوجود معًا. فاللغة، عند غادامير، لا تملك وجودًا حقيقيًا إلا حين يكون للعالم وجود فيها؛ إذ إن انفتاح الإنسان على العالم لا يتحقق إلا عبر اللغة، ومن خلالها يمتلك العالم ويدخل في علاقة تأويلية معه.بهذا المعنى، تغدو اللغة إطار التفكير وحدّه في آن واحد؛ فهي لا تعكس الفكر فحسب، بل تشكّله وتمنحه أفقه الممكن، من خلال شبكة الكلمات المحدودة التي ينفتح فيها الوعي على ما يتجاوزها. ومن هنا، يربط **غادامير** بين اللغة والفكر ربطًا عضويًا، مؤكدًا أن مهمة الهيرمنيوطيقا الأساسية لا تكمن في استخراج معانٍ نهائية أو مطلقة، بل في السعي إلى **إيجاد لغة مشتركة** تتيح التفاهم بين الذوات، وتُبقي المعنى في حالة انفتاح دائم، بوصفه حدثًا يتحقق في اللقاء والحوار، لا في الامتلاك أو الإغلاق

(هانز جورج غادامير2007، 494) تنفتحُ في هذا الأفق، الثقافة الراجعة على منبعها المفهومي باستعادة تأويلية، فتنبثق مقولة الجاحظ **"المعاني مطروحة في الطريق"** بوصفها مبدأً دلاليًا مؤسِّسًا لجدل الدال والمدلول، ولمساءلة طبيعة العلاقة بين اللغة والمعنى؛ ليكشف أن المعنى لا يقيم في اللغة كونه جوهرًا جاهزًا، بل يتشكّل في التوتر الخلّاق بين إمكانه السابق وصيغته اللفظية ضمن السبق في حالته السديمية. لا ينفي الجاحظ عن المعنى قيمته، بل ينزع عنه وهم الامتياز البدئي، ويعيده إلى أفقه التداولي المشترك بوصفه سابقًا على التلفظ، ومنغرسًا في التجربة الإنسانية العامة. غير أن هذا التوافر لا يرقى بالمعنى إلى مرتبة الدلالة إلا حين يُعاد تشكيله داخل بنية لغوية مخصوصة، حيث تتحدد فرادته من خلال النظم، والأسلوب، وجودة السبك، لا من خلال أصله المشاع. المعنى، وفق هذا التصور، لا يقوم على أنه جوهر منجز أو حقيقة مكتملة، بل بما هو إمكانية دلالية لا تتحقق إلا عبر فعل لغوي واعٍ، يجعل من الصياغة لحظة كشف وتأليف، لا لحظة استنساخ أو ترديد. يتقاطعُ بهذا المعنى، تصور الجاحظ مع الرؤية

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

التأويلية الحديثة التي ترى أن الفهم لا ينبني على استحضار دلالات مستقرة، بل يتشكل داخل حركة جدلية بين الفكرة في تشكّلها التصويري والمفهومي، وبين اللغة في مقام الوسيط التأويلي للمعنى، وبين الوعي التاريخي للقارئ وأفق تلقيه. كما تنسجم هذه المقولة مع المنظور السيميائي الذي يؤكد أن المعنى لا يقيم في قطب الفكرة منعزلًا عن العلامة، بل يتبلور في شبكة العلاقات التي تنتظم الدال بالمدلول داخل نظام رمزي محدد. ومن ثمّ، فإن استلاب الجوهر لا يصدر عن شيوع المعنى، بل عن استهلاك صيغته اللغوية وتآكل طاقته الدلالية. وعليه، يغدو الإبداع فعلًا تأويليًا وسيميائيًا في آن واحد، جوهره تحرير اللغة من استعمالها التداولي، وإعادة إدخال المعنى في أفق جمالي وفكري يُجدّد حضوره ويكثّف دلالته.تكشفُ هذه اللحظة، بين القول والعدم، وبين الإمكان والوجود، عن طبيعة الوعي نفسه؛ وعي يكتشف ذاته عبر الاتصال بما هو غير محدد، عبر صيرورة المعنى المتحرك بين الظاهر والخفي، وبين التجربة والتمثل الرمزي. فلا تعكسُ اللّغة، بهذا المعنى، العالم، أو المجال الداخلي للذات، فحسب، بل تنخرط في خلقه، وفي التوسّل بالرموز لإعادة توليد الحقيقة من جديد، ولتوجيه نظر الذات نحو عمق ذاته الخاصة، حيث يلتقي الممكن بالضروري، والفكرة بالتجربة، ويصبح المعنى فعلًا متجاوزًا للزمن، حاضنًا لكل احتمالات الوعي الممكنة، ومفتوحًا على تأويل لا نهائي، وكأن اللغة نفسها تضع الذات في مواجهة مستمرة مع سرّ الوجود. وإذا كانت الدراسات الحديثة في مجالها الفلسفي التأويلي/ السيميائي تنظر إلى اللفظ الدال، كعنصر فاعل في إنتاج المعنى وليس بوصفه انعكاسًا للواقع؛ حيث الدال يرتبط بالمدلول ضمن نسق رمزي، لكنه يظل مرنًا ومفتوحًا لإعادة التأويل، ما يجعل اللغة فضاءً توليديًا يتجاوز الزمن، يربط بين الذات والتجربة والوجود، ويتيح للمعنى أن يتشكل في مواجهة مستمرة مع الإمكان والضروري، والفكرة والتجربة، بحيث تصبح اللغة وسيلة لاكتشاف الحقيقة وإعادة خلقها باستمرار، بناءً على هذا الاستقراء، يتشكّلُ لدينا تصوّرٌ مفادُه أنَّ التلاحمَ بين اللغةِ والفكرِ لا يُقدّمُ المعنى بوصفه محتوىً سكونياً معدّاً للاستهلاك، وإنما **كديناميكيةٍ من الطاقاتِ الكامنة** التي تنتظرُ لحظةَ التبلورِ في جَسدِ النص. هذا الفضاءُ القلقُ والمليءُ بالاحتمالاتِ هو ما وسمناهُ بـ **'سديمِ الفكرة'**، بوصفه المادةَ الخامَ التي تسبقُ تشكّلَ الوعي اللساني. يشير هذا التصور إلى المرحلة الابتدائية للمعنى، حيث يكون في حالة ضبابية تأملية لا تتحدد قبل أن تمرّ الفكرة عبر وسيط لغوي واعٍ يتحوّل إلى علامة يمكن إدراكها والتفاعل معها. يتّضحُ في هذا الانتقال من المضمر إلى الشكل، أن الفعل اللغوي لا يمكن حصرها في النقل، بل هو فعل تأسيسي يحقق المعنى ويجعله حاضرًا في وعي المتلقي.ومن هنا تفتح مقولة الجاحظ الشهيرة "المعاني مطروحة في الطريق" نافذة على هذا الفهم: المعنى ليس مأوى مغلقًا في العقل أو لدى المتكلم وحده، ولا هو امتياز مبدئي، بل هو أفق دلالي مشترك يتوفر قبل الصياغة، ينتظر أن يستدعى ويُمدَّد عبر اللغة. وبهذا المعنى لا تصبح اللغة وسيلة فقط، بل فضاءً للحركة التأويلية لما هو مضمر في الفكرة، فأي علامة لغوية (الدال) ليست إلا تجسيدًا لإمكانات المعنى الكامنة، بينما يكون المدلول هو التجلي الدلالي الذي ينكشف في وعي المتلقي التأملي.
وتبعًا لذلك، يعكس سديم الفكرة في هذه القراءة، رؤى فلسفية وسيميائية معاصرة ففي النظرية التأويلية لغادامير، لا يقوم الفهم على استحضار معانٍ ثابتة مسبقًا، بل يحدث في سياق التفاعل

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

الحي بين النص والقراء، حيث تتشكل الدلالة في مساحة مشتركة بين الماضي الحاضر، بين ما أطلق عليه القارئ والمعنى الذي يتبلور من عملية القراءة نفسها. فالفهم ليس استنساخًا لمحتوى مسبق، بل خلقًا وتأويلاً.وفي موازاة ذلك، تبيّن وجهة نظرنا أن العلامة اللغوية لا تحمل معنى كاملاً بحد ذاتها، بل تنشأ الدلالة في علاقة حيوية بين سديم الفكرة، والدال، والمدلول ضمن نظام العلامات. هنا، الدال ليس مجرد سطح صوتي أو رمزي، بل جسر يتحقّق عبره المعنى المضمر. إن المعنى لا يظهر على أنه موجود مكتمل قبل اللغة، بل كمجال من الإمكانات المضمرية التي تتشكّل وتتبدّل وتتوسع بفعل العلامة اللغوية وسياقها الاستخدامي والثقافي. إنه فضاء دلالي أولي، يتكوّن في طوره البدئي كمنبع مضمر للفكرة، حيث يبقى غير محدد وغير متجسد إلى أن يخضع لفعل لغوي واعٍ يُحوّله إلى علامة يمكن إدراكها والتفاعل معها، فيصبح المعنى حاضرًا وملموسًا في التجربة القرائية والتأملية. وفي ضوء ذلك، فإن هذا السديم لا يمثل محتوى جاهزًا للنقل أو الاستيلاد، بل حقلًا للتشكل الدلالي المتحرّك، يسمح للغة بالانبثاق كوسيط حي يربط المضمر بالمدلول، ويجعل المعنى تجربة نشطة ومتجددة في كل تفاعل لغوي. ومن هذا المنطلق، تتحول اللغة إلى فضاء إبداعي وتأويلي، تتجلى فيه الفروق الفردية في التعبير والمعنى عبر جودة الصياغة والأسلوب، ويصبح المعنى حضورًا حيًّا يتفاعل مع وعي المتلقي، ويكتسب أبعاده الجمالية والفكرية من خلال العلاقة الديناميكية بين العلامة، والسياق، والإمكانات المضمرية للفكرة.تقدم مقولة الجاحظ الشهيرة **"المعاني مطروحة في الطريق"** تصوّرًا عميقًا للغة والمعنى، إذ تنزع عن المعنى صفة الامتياز الابتدائي وتعيده إلى أفق دلالي مشترك، حيث يصبح متاحًا للجميع قبل أن يتحقق في الملفوظات. يكونُ المعنى في هذا الفهم، إمكانًا قبل أن يكون حضورًا، ويظل في حركة دائمة، غير محدود بالزمان أو المكان، مفتوحًا للتفاعل التأملي مع اللغة والوعي. هذه الرؤية تتوافق مع التأويل الحديث الذي يرى أن الفهم لا يقوم على استحضار دلالات جاهزة، بل على تفاعل حي بين النص والسياق ووعي القارئ، حيث تتشكل الدلالة في مساحة مشتركة بين النص والعقل. وتتضح العلاقة بين **سديم الفكرة، الدال، والمدلول** حين نرى أن العلامة اللغوية لا تحمل المعنى بمفردها، بل تتشكل الدلالة من خلال **تفاعل ديناميكي** بين هذه العناصر الثلاثة. فالسديم يمثل المضمرية الأولية للمعنى، الإمكانات التي تنتظر أن تتحقق عبر اللغة، والدال يصبح الوسيط الذي يربط هذه الإمكانات بالمدلول، ويتيح له أن يظهر ويتحقق في وعي المتلقي، بهذا يتحول الدال من كيان صوتي أو رمزي تقليدي إلى جسر حي يتيح تحقق المعنى المضمر ويمنحه حضوره الدلالي. ومن هنا، يتضح أن المعنى لا يتجسد إلا في **علاقة تفاعلية حية** بين الإمكان المضمر، والعلامة اللغوية، ووعي المتلقي، حيث تتحقق فرادته وقيمته الجمالية والفكرية.ولعل هذا الفهم يجد انعكاسه في الأدب المعاصر، كما يظهر في الرؤية السردية(سعاد بسناسي، 2025، 89.) حيث تتحرك المشاعر والهواجس النفسية للشخصيات في فضاء مضمر قبل أن تتجسد في الكلمات، وتتضح فقط في وعي القارئ كمدلول متغير، يتشكل بتفاعل العلامات اللغوية مع السياق السردي والزماني. ويُشيرُ في الفكر المعاصر، رولان بارت في Mythologies إلى أن اللغة الميثولوجية تحوّل العلامات إلى دلالات تلقائية، لكنها تفقد ثراءها المضمر حين تُستهلك دون وعي بالعلاقة بين الدال والمدلول وسديم الفكرة، وهو ما

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

يعكس أهمية التفاعل الواعي مع اللغة والإبداع في توليد المعنى.من هذا المنظور، يصبح المعنى فعلًا **تأويليًا وسيميائيًا في آن واحد**، فاللغة تتحرر من تداولها المألوف لتعيد إدخال المعنى في أفق جمالي وفكري متجدد، حيث تتشكل العلامة والوعي والتجربة التأملية معًا في لحظة إبداعية تكشف المضمرية وتحققها في الواقع القرائي والفكري. وهكذا، فإن مقولة الجاحظ ليست مجرد حكمة أدبية، بل **أساس فلسفي لتصور المعنى بوصفه فضاءً مضمرًا يتفاعل مع العلامة والوعي**، ما يفتح آفاقًا جديدة لفهم اللغة والكتابة والإبداع في كل قراءة وكل تجربة لغوية.يمكن القول أخيرًا إن المعنى لا يظهر ككيان جاهز أو مضمون ثابت، بل هو **إمكان متجدد يتشكل في العلاقة الجدلية بين سديم الفكرة، الدال، والمدلول**، حيث تتحقق القراءة المركّزة والإبداع اللغوي كحوار حيّ مع النص والمعنى. اللغة والقراءة في هذا السياق ليستا مجرد أداء وظيفيًا، بل **فعل تأسيسي يخلق الدلالة والجمال ويعيد صياغة المعنى في كل مرة**، مما يجعل المعنى تجربة حيّة ومفتوحة للتأويل والإبداع، ويفتح الطريق أمام فهم أعمق للصلة بين الفكر، اللغة، والإبداع.

ولتقريب الفكرة من تجارب نصية معاصرة، يمكن أن يستحضر القارئ رواية مرتفعات وذرينغ لإميلي برونتي Wuthering Heights . وفي هذه الحالة، تتجاوزُ التوصيفاتُ السيكولوجيةُ للشخصياتِ مَهمةَ السردِ التقليدي، لتستحيلَ **تجلّياً لهويةٍ مضمرة** لا تكتملُ ملامحُها إلا بلحظةِ الاشتباكِ مع وعيِ المتلقي. فالمفاهيمُ العاطفيةُ في الروايةِ، كـ 'الحبِّ' أو 'الهجرِ'، تغادرُ سكونَها المعجمي لتنتظمَ داخلَ **شبكةٍ من الإحالاتِ الدلالية**؛ حيث يغدو 'الدالُّ' (الأسلوبُ واللغة) مجردَ مسارٍ إجرائيٍّ يقودُ القارئَ نحو **استيلادِ مدلولاتٍ متغيرة**، يُعيدُ تشكيلَها وِفقَ أفقِ تجربتِه الخاصة، مما يَجعلُ المعنى حالةً من **الصيرورةِ الدائمة** لا النتيجةَ النهائية. مثال آخر في الفكر المعاصر نجده عند رولان بارت في أسطورة المعنى، حيث يشير إلى أن اللغة الميثولوجية تُحوّل العلامات إلى دلالات تلقائية، فتفقد قدرتها على التعبير عن ثراء المضمر وتصبح دلالاتها مستهلكة. فالبحث السيميائي عند بارت يكشف أن السطحية ليست في انتشار المعنى بحد ذاته، بل في استهلاك صيغته اللغوية دون وعي بالعلاقة الديناميكية بين الدال والمدلول وسديم الفكرة. من هذا المنطلق، يصبح واضحًا أن الإبداع اللغوي والفهم العميق لا ينشآن من وجود الفكرة وحده، بل من لحظة تجسيدها في اللغة ومن ثم استقبالها التأملي. الفعل اللغوي، في هذا السياق، هو لحظة تكثيف الفضاء المضمر وإتاحته كمدلول حقيقي في وعي المتلقي. فالمعنى قد يكون مطروحًا في الطريق، لكنه لا يكون حاضرًا إلا حين يُستدعى بوعي وتأمل، ويتفاعل مع نظام العلامات في اللغة ومع التجربة الذاتية للمتلقي.وهكذا، يتضح أن الفهم الحقيقي للغة والمعنى لا يقوم على استحضار دلالات جاهزة، بل على إعادة بناء المعنى في الفعل اللغوي والوعي التأملي، مما يجعل الكتابة والقراءة أفعالًا تأويلية بالغة العمق، تفتح أمامنا فضاء لسديم الفكرة الذي يتشكل ويتجدد مع كل استخدام واعٍ للغة، ويمنحنا رؤية أعمق للصلة بين الفكر، واللغة، والإبداع. وضمن هذا السياق، يتحدد المعنى عند **بول ريكور** Paul Ricœur، في المسافة التي تفصل بين القول وتجربته، بين النص وأفق تأويله. فالنص، بعد أن ينفصل عن قصد مؤلفه، يفتح إمكانات دلالية جديدة لا نهائية، ويصبح فضاءً لتعدد القراءات. غير أن هذا الانفتاح لا يبدأ عند النص وحده، بل يمتد إلى ما قبل النص، إلى تلك اللحظة التي يتكون فيها المعنى في الوعي كإمكان غير

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

متعين. **فريكور** يرى أن الرمز **"يفكر بنا قبل أن نفكر فيه"**، أي أن المعنى يسبق الوعي الصريح، ويتشكل في طبقات عميقة من التجربة، قبل أن يُستدعى إلى اللغة. وهكذا، فإن الانسجام الكشفي بين الرؤية واللغة يتمثل في انتقال المعنى من حالته الرمزية الكامنة إلى تعبير لغوي لا يغلقه، بل يوسّع أفقه التأويلي. بذلك، يغدو **الإمكان التوليدي الدلالي** هو القلب النابض للعملية السيميائية والتأويلية: فضاء تتكون فيه الفكرة قبل أن تُقال، وتتحدد فيه ملامح المعنى قبل أن يُربط بعلامة. اللغة، في هذا النسق، ليست مولِّدة للفكرة، بل استجابة لها، وليست سبب الكشف، بل أثره. إنها لحظة التقاء الرؤية بذاتها في شكل قابل للتداول، دون أن تفقد انفتاحها على التأويل. وهنا يتأكد أن الفكرة لا تُولد من اللغة، بل اللغة هي التي تُستدعى حين تبلغ الفكرة درجة من التكوّن تجعل الصمت غير كافٍ لاحتوائها. بهذا المعنى، يصبح الفعل التأويلي مسارًا متصلًا يبدأ من الإمكان الدلالي، ويمر عبر العلامة، ولا ينتهي عندها. فكل تعبير لغوي ليس سوى تثبيت مؤقت لمعنى قابل دائمًا لإعادة القراءة، وكل لغة ليست إلا مرحلة في تاريخ المعنى، لا أصله ولا منتهاه. وهكذا تتجلى الذات فاعلًا توليديًا مبدعًا، يصوغ اللغة انطلاقًا من جوهر الفكرة في بداءة المضمر، ويعيد تنشيط المعنى في كل قراءة، ويقيم في الفضاء الخصيب بين ما يُدرك وما يُعبّر عنه، بين ما ينشأ داخليًا وما يتجسد في العلامة. إن ما نرمي إليه بمفهوم "بداءة المعنى في المضمر" لا ينفصل عن تصور فلسفي- تأويلي للمعنى بوصفه بنيةً غير مكتملة في لحظة ظهورها اللغوي، ولا قابلة للاختزال في فعل التلفظ أو الكتابة، بل باعتباره أثرًا دلاليًا قبليًا، يتكوّن في طبقة سابقة على انتظام الدال، حيث لا يكون المعنى بعدُ وحدة مستقرة، بل حركة تشكّل مؤجَّلة، تنبثق في المضمر بوصفه فضاءً للتوتر بين الوجدان والتمثل، قبل أن يُعاد توزيعه داخل النسق اللغوي بوصفه دلالة قابلة للتداول. فضلا عن أن **"حركة تشكّل مؤجَّلة"** تحيل إلى انزلاق الدلالة، حيث لا يستقر المعنى نهائيًا عند مدلول ثابت، بل يتوزع عبر سلسلة دوال. وفي هذه الحال يكون المضمر هنا قريبًا من اللاوعي البنيوي، إذ يُنتج المعنى خارج الوعي اللغوي المباشر، ويظهر لاحقًا كأثر لا كحضور كامل. وحيث تتكوَّن النواة الأولى للدلالة قبل أن تُدرج في نظام العلامات وقوانينه الاصطلاحية، حينها يظل المعنى في بداءته خارج اللغة، إمكانًا دلاليًا يتقدم عليها، مستدعيًا اللغة لاحقًا كأفقٍ للتجسد والتداول.

ومن هذا المنظور، يغدو مفهوم "مهاد الرؤيا" **في علاقتها بين الدال والمدلول** هو الإطار الذي يُفهم ضمنه هذا التأسيس القبلي للمعنى؛ لأن مهاد الرؤيا يمثل ذلك الحيز الوسيط الذي تتشكل فيه الرؤيا كبنية حدسية كلية، تتداخل فيها التجربة الوجدانية والتمثل الذهني والذاكرة والخيال، قبل أن تُفوض إلى الدال اللغوي. وفي هذا المهاد لا يكون الدال بَعدُ وحدة لسانية مستقرة، ولا يكون المدلول معنىً منجزًا، بل تقوم العلاقة بينهما على توتر خلاق، يظل فيه المعنى في حالة تشكّل، لا في حالة اكتمال، وقد جسّد هذا التصور أرسطو منذ العصور القديمة بقوله: **"ما يخرج بالصوت دال على الآثار التي في النفس، وما يكتب دال على ما يخرج بالصوت"**(عبد الرحمن بدوي، 1980، 99)، وهي رؤية فلسفية دقيقة للغة باعتبارها وسيطًا بين العالم الداخلي للذات والواقع الخارجي. وفي هذه الحال، يتجاوز الصوت المنطوق كونه وسيلة تواصل ليصبح مرآة للعمق النفسي والفكري للذات، كاشفًا عن معانيها وأحاسيسها وأفكارها، ومحوّلًا إياها إلى تجربة

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

يمكن إدراكها من الآخرين. وتأتي الكتابة كمرحلة متقدمة من التجسيد، فهي لا تصل مباشرة إلى النفس، بل توثق الصوت الذي سبقها، فتصبح اللغة عملية متصلة ومتراكمة تبدأ بالمعنى الداخلي، ثم تتجلّى بالصوت، قبل أن تثبّت في العلامة المكتوبة. بهذه الطريقة يقدم أرسطو تصورًا للمعنى على أنه ليس شيئًا ثابتًا خارج الذات، بل فعل مستمر من التشكّل والتجلي، حيث اللغة بمستوييها الشفهي والكتابي تعمل كجسر بين الداخل النفسي والوجود المشترك، وتتيح للوعي أن يكتشف ذاته ويواجه حقيقة المعنى بطريقة ديناميكية وتوليدية، تجعل من كل لفظ أو علامة تجربة فلسفية متجددة، تتجاوز النقل لتصبح مشاركة في خلق الحقيقة وفهم الواقع.

وفق هذا التصور، لا تُنتج العلامات المعنى إنتاجًا آليًا، ولا تنشأ الدلالة من إحالة مباشرة بين دال ومدلول، بل تتولد من مسار داخلي معقّد، تبدأ حلقاته في المضمر، حيث تُصاغ الرؤيا الأولى للمعنى، ثم تمر عبر سلسلة من التحولات حين تُستدعى إلى اللغة. عندئذٍ لا يكون الدال سوى أثر لغوي لتلك البداءة غير اللغوية، ومحاولة لتمثيل ما تشكّل حدسيًا في العمق، دون أن يستنفده، أو يطابقه تمام المطابقة. وفي هذا السياق، يُنزِل دلتاي Wilhelm Dilthey الفكر من سمائه الهيغلية، من أفق المعرفة المطلقة والمتعالية، إلى أرض التجربة الإنسانية المعيشة؛ إلى معرفة تنبثق من صميم الحياة نفسها، وتتجذر في تفاصيلها اليومية وفي ما يسميه بعالم الحياة. فالفهم لم يعد فعلًا عقليًا مجردًا أو تأملًا فوقيًّا، بل تجربة حية تتشكل داخل سياق الوجود الإنساني، حيث تصبح الحياة الخاصة، بتاريخها ووجدانها وتحوّلاتها، مصدرًا للمعنى وأفقًا لتأويله

(هانز جورج غادامير، 2007،117)

لا تنبثق اللغة وفق المنظور التأويلي، من علاقة تقنية بين دال ومدلول، ولا تُختزل الدلالة في آلية إحالية جاهزة، بل تتأسس في منطقة سابقة على اللغة ذاتها، حيث يتكوّن المعنى أولًا بوصفه حدسًا معيشًا ورؤيا داخلية نابعة من التجربة. في هذا المستوى المضمر، لا يكون المعنى بعدُ لغويًا، بل هو شكل من أشكال الفهم القبلي للعالم، يتغذّى من الإحساس، والذاكرة، والتاريخ الشخصي، ومن الاحتكاك المباشر بعالم الحياة. ومن هنا تتقاطع هذه الرؤية مع مشروع دلتاي Dilthey، الذي يفكّ الارتباط الهيغلي بين المعرفة والمطلق المتعالي، ويعيدها إلى أفق الحياة المعيشة. فالدلالة، شأنها شأن الفهم، لا تنهض من بنية عقلانية شاملة ولا من منطق متعالٍ عن الوجود، وإنما تتولّد من صميم العيش الإنساني ذاته؛ من احتكاك الذات بعالمها، ومن تداخل أبعادها الحيوية والتاريخية والوجدانية في نسيج واحد. وضمن هذا الأفق، تغدو اللغة الكامنة لاحقة للتجربة لا سابقة عليها، غير متسلطة ولا مؤسسة، بل فعل تشكّل ثانٍ يسعى إلى القبض على ما تخلّق في العمق الوجودي قبل أن يستقر في صورة تعبيرية قابلة للنطق. وبناء على هذه الفكرة، يصبح الدال أثرًا لغويًا لحدث تأويلي سابق عليه، وشاهدًا غير مكتمل على معنى تَشكّل داخل الحياة قبل أن يُقال. فخلق اللغة هو، في جوهره، فعل تأويل مزدوج: تأويل للتجربة حين تُستدعى إلى القول، وتأويل للمعنى حين يُعاد تشكيله داخل بنية لغوية لا تطابقه تمامًا، لكنها تتيح له الظهور والتداول. بهذا المعنى، لا تُنتج اللغة المعنى من العدم، بل تكشفه، وتعيد صياغته داخل

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

أفق مشترك، حيث يظل المعنى مفتوحًا على إمكانات الفهم وإعادة التأويل، بقدر ما تظل الحياة نفسها مفتوحة على التحول. وهكذا، تتخذ العلاقة بين الدال والمدلول طابعًا تأسيسيًا مستمرًا، لا تطابقًا أو ضرورة، حيث يُصاغ المعنى ويُؤجل، ويظل الدال مرتبطًا بالإشارة إلى مدلول ينضج تدريجيًا ضمن شبكة متحركة من التحديدات والسياقات، يُفهم فيها المدلول كأفق دلالي ينبثق من مهاد الرؤيا، ويتحقق جزئيًا عبر الدال، ويظل منفتحًا على التعدد والتأويل. فالمعنى، في نهاية المطاف، ليس ما تقوله اللغة فحسب، بل ما تحاول قوله انطلاقًا من مضمرها، وما تعجز عن الإحاطة به كاملًا، وهو ما يجعل بداءته كامنة في العمق، لا في سطح الخطاب. يتبدّى من هذا التصور أن الدلالة لا تُختزل في علاقة لغوية جاهزة بين دالّ ومدلول، بل تتشكّل عبر مسار تدرّجي معقّد يبدأ في مستويات نفسية سابقة على اللغة، حيث تعمل الدوالّ الدون - لغوية على أنها آثار تصويرية أو وجدانية أو حركية للمعنى، تتجسّد في صورة الذات، أو في سمة عارضة، أو في تردّد مؤجَّل لا يستقر على مدلول نهائي. هذه الدلالات، وإن بدت خارج النسق اللغوي، لا تنفصل عنه انفصالًا حاسمًا، بل تعبر عتبة وسيطة يصبح فيها الحيّز اللغوي مجالًا لترميز العالم الباطني، حيث يقترن التجلي الليبيدي بالتجلي الأنوي The manifestation of the libidinal via egoic manifestation ليبلغ مستوى تمثيل الشيء في موقع كونه تمثيلًا نفسيًا للعالم الظاهري. ومن هذا الأفق الانتقالي، تتخلّق الدلالات **الضمن- لغوية** داخل بنية اللغة، متجسدة في الصيغ النحوية المختلفة، خاضعة لمنطق الاختلاف البنيوي الذي صاغه دو سوسور Ferdinand de Saussure، حيث تقوم اللغة كنظام تفاضلي اعتباطي لا يستمد معناه من تطابق صوتي أو جناس طبيعي، بل من شبكة العلاقات الداخلية بين الدوال. غير أن هذا النسق البنيوي نفسه يظل، في العمق، مشدودًا إلى أصل دلالي بدائي، يُنظر إليه بوصفه منبعًا أسطوريًا لحركة الدوال، ما يجعل الدلالة أثرًا تشكليًا مفتوحًا، لا معطًى ثابتًا، ويتحوّل فيها المعنى إلى نتيجة لمسار تأويلي يتقاطع فيه النفسي واللغوي والبنيوي

(فردينان دو سوسور، 1987، 66..)

إنَّ **'البداءة'** هنا لا تتوقف عند حدود **السبق الزمني**، بل هي **حقل وجوديٌّ** وقاعدةٌ أنطولوجية تُشرعِنُ بزوغَ الدلالة؛ إنها تُمثّلُ لحظةَ **"الكمونِ الموّار"**؛ حيث يسبحُ المعنى في مَدارهِ السديميّ قبل أن يمتثلَ لسطوةِ المفاهيم أو يتقيّدَ بحدودِ الأنساقِ اللغوية. في هذه المرحلة، يتبدّى المعنى بوصفه **دفقاتٍ وجدانيةً خام**، وتشكيلاتٍ حدسيةً سائلة تتخلّقُ في **عُزلةِ الصمتِ السحيق**، حاملةً في أحشائها 'بذورَ الكينونة' التي تتحيّنُ فرصةَ الانبجاسِ في لغةِ النص. في هذا المستوى، لا يكون المعنى قابلًا للتداول أو الإحالة المباشرة؛ لأنه لم يدخل بعد في نظام العلامات، لكنه مع ذلك يمارس ضغطه على الذات، ويطالب بالتمظهر والقول. أمّا المضمر فيدلّ على ذلك المجال الكامن الذي يتقدّم القول دون أن ينفصل عنه؛ إذ لا يقوم بوصفه نقيضًا للمتجلّي، بل باعتباره شرط تشكّله وأفق إمكانه، والعمق الذي يستمدّ منه الظاهر قابليته للظهور والمعنى. فالمضمر هو المجال الذي تُختبر فيه الفكرة قبل أن تُصاغ، وتُمحَّص فيه الرؤيا قبل أن تتحول إلى خطاب. وفيه تتكوّن العلاقات الأولى بين الإحساس والمعنى، وبين الصورة الذهنية واللفظ المحتمل، بحيث يغدو الدال لاحقًا أثرًا لهذا التكوّن لا مصدرًا له. بهذا المعنى، فإن اللغة لا تخلق المعنى من عدم،

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

بل تستدعيه من مخزونه المضمر، وتعيد تشكيله وفق قوانينها الاصطلاحية والتركيبية. وفي قدر كبير من هذا الطرح يرى بنفنيست Emile Benveniste أن: "لغة النحو التي تصف الاستعمال - الجانب الشكلي للغة - هي لغة واصفة Métalangue: التكلم عن الاسم، الظرف، الصائت Voyelle، **الصامت**، Consonne، هو حديث عن اللغة الواصفة. كل مفردات اللغة الواصفة، لا تجد تطبيقا لها إلا في اللغة، هذه اللغة الواصفة، يمكن بدورها أن توصف في رموز منطقية، **واضعين علاقة التضمُّن** Implication بينها وبين الأقسام اللسانية".

(Emile Benveniste1974,p 36.)

ومن هذا المنطلق، يفتح عنوان **"بداءة المعنى في المضمر"** أفقًا نقديًا لفهم العلاقة بين الدال والمدلول على نحو غير آلي. فالمعنى لا ينبثق مباشرة من الدال، ولا يقيم فيه إقامة طبيعية، بل يمر عبر مسافة داخلية، حيث يتعرض للتحوير والانتقاء قبل أن يُفوض إلى العلامة اللغوية. وهذا ما يفسر عدم تطابق الدال مع مدلوله، وانفتاح الدلالة على التعدد والاختلاف، وتحوّل النص إلى فضاء تأويلي تتعدد فيه القراءات باختلاف الذوات والخبرات. كما يسلط هذا التصور الضوء على الدور المركزي للذات في إنتاج المعنى. فالمبدع أو المتلقي لا يتعامل مع اللغة على أنها أداة محايدة، بل لأنها وسيط يمر عبر شبكة من التمثلات النفسية والثقافية والذاكرات الجمعية؛ فالمعنى، في بداءته، يتلوّن بما يختزنه الوعي الفردي من تجارب، وبما يرسّبه الوعي الجمعي من رموز وأنماط، قبل أن يتخذ شكله اللغوي. لذلك لا يمكن فصل المعنى عن شروطه النفسية والاجتماعية والتاريخية؛ لأنها تشكّل جزءًا من مضمره المؤسس.وتبعًا لذلك يمكن النظر إلى الذات المبدعة للمعنى على أنها مركز مركّب يجمع بين العقلانية، والوجدانية، والخيال، والذاكرة، في فضاء معرفي - إبداعي متشابك؛ إذ إنتاج المعنى ليس حدثًا لحظيًا، بل عملية معقدة تبدأ من مستوى **المضمر**، حيث تتشكل بذور الأفكار قبل أن تُعبَّر عنها لغةً أو كتابةً، وهو ما أشار إليه ابن خلدون في سياق بيانه لطبيعة الفكر الإنساني وكيفية إدراك الإنسان لما هو خارج عن ذاته. يُذكر فيه أن الإنسان، بخلاف باقي الكائنات، لديه قدرة على الإدراك الفكري الذي يتجاوز الحواس الظاهرة، فيستعمل قواه العقلية في **"بطون دماغه"** لانتزاع صور المحسوسات والتأمل فيها وتوليد صور أخرى مجردة، وأن الفكر في نظره هو التصرُّف في هذه الصور وراء الحس، وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب، على نحو ما جاء في قوله: **"يدرك الخارج عن ذاته بالفكر، الذي وراء حسه، وذلك بقوى جعلت له في بطون دماغه ، لينتزع بها صور المحسوس، ويجول بذهنه فيها فيجرد منها صورًا أخرى... وأن التصرف في تلك الصور وراء الحدس والجولان الذهني بالانتزاع والتركيب**(عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، 1984، 520.)

يُقدّمُ ابن خلدون في هذا النص، تصورًا دقيقًا للعلاقة بين النفس والعالم الخارجي، موضحًا كيف تتدخل قوى العقل في إدراك ما هو خارج الذات. فهو يرى أن الإنسان لا يكتفي بالحواس في إدراكه للواقع، بل يمتد الفكر إلى ما وراء الحسية المباشرة، مستفيدًا من قدراته العقلية الكامنة في **"بطون دماغه"**؛ أي مراكز الإدراك الذهني. من خلال هذه القوى، يمكن للعقل أن يستخلص من الظواهر المحسوسة صورًا ذهنية، ثم يجول بها ويعيد تركيبها ليشكل تصورات مجردة جديدة، تعكس البنية الداخلية للمعرفة الإنسانية. بهذا المعنى، يقدّم ابن خلدون رؤية متقدمة عن **دور العقل**

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

في التجريد والتأويل، حيث يتحوّل الإدراك من كونه استقبالًا سلبيًا للواقع إلى عملية فاعلة تسهم في إنتاج المعنى، وربط الحسي بالمجرد، والفكر بالخبرة، في شبكة متكاملة من الإدراك العقلي والتصور الداخلي للظواهر؛ فضلا عن ذلك يوضح ابن خلدون أن إدراك الإنسان يتجاوز الحواس المباشرة ليصل إلى جوهر الظواهر عبر الفكر، مستفيدًا من قدراته العقلية الداخلية، بحيث يستطيع استخراج صور ذهنية من المحسوسات وتوليد تصورات مجردة جديدة. والإدراك بهذا ليس استقبالًا سلبيًا للواقع، بل فعل ذهني نشط، يسهم في إنتاج المعنى وخلق شبكة متكاملة بين الحسي والمجرد، والفكر والتجربة.

تنبثقُ الأفكارُ في هذه المرحلة الأولية، من تراكم الخبرات الحسية والوجدانية، ومن قدرة الذات على التمثّل الذهني للأشياء والعلاقات. لا تتّسمُ الذات بالسلبية أمام الواقع، بل تعمل كفاعل إبداعي يعيد إنتاج عناصره الداخلية والخارجية وفق رؤيتها الفردية، متجلية عبر هذه المحددات:

أ) **التمثل الذهني**: قدرة العقل على خلق صور داخلية للأشياء والأحداث، بما يتجاوز الانطباع الحسي. ويشكل هذا التمثل إطارًا أوليًا للمعنى، قبل أن يخضع للغة.

ب) **التجربة الوجدانية**: تمنح المشاعر والانفعالات الأفكار طابعها الحيوي، فهي لا تُنتج من فراغ، بل تتشابك مع حالات النفس ومكنونات الذات الداخلية، فتضيف للمعنى نكهة وجدانية وطبقة شعورية.

ت) **الذاكرة**: تعمل الذاكرة الفردية والجمعية كخزان للمعاني السابقة، وتوفر مادة أولية يمكن للذات البناء عليها، مستعيدة نماذج سابقة ومشاهد مألوفة أو رمزية لتغذية الابتكار والإبداع.

ث) **الخيال**: قدرة العقل على توليد صور غير موجودة في الواقع المباشر، أو على إعادة تركيب الواقع بطريقة جديدة، ما يجعل المعنى يمتد خارج حدود الخبرة الحسية المباشرة، ويصبح قابلًا للتأويل والابتكار.

ج) **الحدس والإدراك الباطني**: تعملُ الذّات قبل أن يتمكن العقل من ترميز المعنى في علامات لغوية، تعمل الذات عبر حدس داخلي يربط بين العناصر الذهنية المختلفة، لتشكل بنية أولية للمعنى، يمكن ترجمتها – لاحقًا - إلى دال لغوي.

تُولّدُ الذّات أفكارًا متشابكة من خلال هذا التفاعل المعقد بين التمثل الذهني، والتجربة والوجدانية، والذاكرة، والخيال، والحدس، حيث يكون المعنى **متحركًا، قابلًا للانفتاح على التأويل، وغير مكتمل داخل اللغة في لحظته الأولى**. والحال هذه، أن اللغة هنا لا تُنتج المعنى تلقائيًا، بل تُفوض إليه البذور الأولية التي شكلتها الذات، فتعمل كوسيط للتجسد والتداول الاجتماعي.

وبصياغة أوضح، تعمل الذات المبدعة على تفعيل المضمر الذهني وتحويله إلى دال لغوي عبر آلية مزدوجة: **تأسيس داخلي** للمعنى و**تفويض لاحق** إلى اللغة، بحيث تصبح العلامة اللغوية ناقلة للمدلول، ومهيئة له، لكنها ليست المصدر الأول للمعنى. وتتجلى هذه العملية في أن المعنى لا يظهر كانعكاس للعالم الخارجي، بل كنتاج لفاعل مركّب وحيوي، يدمج بين البعد الداخلي الوجداني والبعد الاجتماعي الاصطلاحي.وبمقتضى هذا التصور، يمثل المضمر المستوى القبلي والمعرفي الذي تتشكل فيه الأفكار قبل أن تدخل اللغة، فهو فضاء داخلي مفتوح لا تخضع فيه

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

الأفكار لقوانين العلامات اللغوية أو للاشتراطات الاصطلاحية. تتفاعلُ عناصر متعدّدة في هذا المضمر، تشكل النواة الأولية للمعنى، من التمثل الذهني الذي يخلق الصور الداخلية للأشياء والأحداث ليستفيدَ من تجارب العقل السابقة، إلى الخبرة الوجدانية التي تضفي على هذه البذور حيوية وشحنة شعورية، مرورًا بالذاكرة الفردية والجمعية التي تزود المضمر بالمادة الأولية للمعنى عبر استدعاء الخبرات السابقة والرموز الثقافية. كما يؤدي الخيال دورًا حاسمًا في إعادة تركيب الواقع وتوليد صور مبتكرة، ويوسّع نطاق الإمكانات الدلالية، فيما يعمل الحدس والإدراك الباطني على ربط عناصر المضمر المختلفة، لبنية أولية متماسكة للمعنى قبل أن تتحول إلى علامات لغوية. بهذا المعنى، فإن المضمر لا يقتصر على كونه مرحلة تمهيدية قبل اللغة، بل يشكّل حيزًا إنتاجيًا غنيًا ومعقدًا، تتولد فيه الأفكار وتستقر بذور المعنى الأولى، ويعمل كمخزن سرّي للخبرات النفسية والمعرفية قبل أن تتحول إلى صياغة لفظية قابلة للتواصل. إنه الفضاء الذي يلتقي فيه العقل بالوجد، والوعي بالتجربة، حيث تتشابك المشاعر مع الإدراك، وتتكامل الاستجابات الذاتية مع التأويلات المحتملة للعالم الخارجي. في هذا المضمر، تنبثق الإمكانيات اللغوية قبل أن تتحول إلى خطاب واضح، ويشكل نسقًا معرفيًا وجدانيًا متكاملًا، يسمح للمعنى أن يولد من الداخل، قبل أن يُسقَط على الواقع أو يُستثمر في الفعل الإنساني. وبذلك، يتحول المضمر من كونه مرحلة سابقة للغة إلى أرض خصبة للتخييل والإبداع، حيث تتلاقى الجوانب النفسية والثقافية والفلسفية لتنشئ لحظة إنسانية أولية متجددة، تحمل في مضامينها إمكانات إنتاج المعرفة، وفهم الذات، والتفاعل مع العالم بما يتجاوز حدود التعبير اللفظي المباشر.

2. رحلة البذرة الخفيّة نحو التّجلّي الدّلاليّ

تبدأ رحلة المعنى من أعماق المضمر الخفي، حيث تختبئ بذور الفكر والوجدان، وتستقر إمكانات الوعي في حالة شبه صامتة قبل أن تجد صيغتها اللغوية النهائية. في هذا العمق، لا يكون المعنى شيئًا جاهزًا أو مستقرًا، بل هو إمكانات خام، مجهولة الطلوع، تنتظر اللحظة المناسبة للانفجار أو التجلّي. والحال هذه، أن المضمر ليس مرحلة تمهيدية للغة، بل هو فضاء إنتاجي معقد، تتقاطع فيه عناصر الإدراك، والوجد، والخيال، والذاكرة، لتخلق شبكة من الإمكانات التي تشكّل نواة المعنى، قبل أن تتحول إلى دال ظاهر.تمثل هذه المرحلة الخطوة الأولى لانفتاح الوعي على ذاته ومحيطه، إذ تظهر كلحظة توتر داخلي بين الممكن والمتحقق، وبين ما يظهر في سطح التجربة وما يختبئ في أعماقها. عند هذه النقطة، تصبح الذات فاعلًا متعدد الأبعاد، يشكّل مجالًا مولّدًا للدلالة، تتماهى فيه منظومات التلقّي المختلفة: البنية الذهنية التي تنظم التصورات والعلاقات، والحس الشعوري الذي يضفي الحركة والكثافة، والطاقة التصويرية التي تحرر التجربة من المباشر وتفتحها على الاحتمالات، والتجربة المتراكمة التي تحتفظ بآثار العيش وتعيد صياغتها ضمن نسق ديناميكي. لا تبقى الذات متلقيةً للخبرة أو الخطاب، بل تنخرط في إعادة بناء التجربة وتنظيم حضورها الداخلي، كاشفة عن طاقاتها وحدودها قبل أن تتبلور في شكل تعبيري مكتمل.كل فكرة، وكل شعور، وكل تجربة تصبح عنصرًا فعالًا في بناء النسق الدلالي، حيث يتداخل الداخل بالواقع، ويتشكل المعنى ككائن حيّ، متحرك، قابل للتوسع والتغير، يختبر ذاته ويعيد خلق ذاته عبر كل طبقة من وعيه. والمعنى هنا ليس ثابتًا أو محدودًا، بل إمكان دائم للخلق

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

والتجريب، يتشكل ويتحول مع كل لمحة إدراك أو شعور وجداني، ويمنح اللغة القدرة على أن تكون أكثر من أداة للتواصل، لتصبح انعكاسًا حيًّا لإبداع الذات وقدرتها على التجربة والتأمل.صبحُ كلُّ لفظٍ في هذه اللحظة، محتملًا، وكل رمز ممكنًا، وكل تجربة داخلية مادة خام لإنتاج المعنى. والذات، في تفاعلها المركب، لا تنتظر الواقع لتقدمه لها جاهزًا، بل تبتكر واقعها الرمزي والمعنوي داخليًا، وتعيد تشكيله قبل أن يتحول إلى لغة، فتصبح اللغة وسيلة لتجلي ما تم إنتاجه داخليًا في قلب المضمر. بهذا تتحول الذات من متلقٍ إلى خالق للمعنى، صانع للواقع الرمزي، ومنتج للغة والإمكان الدلالي، في رحلة مستمرة بين الصمت والتعبير، وبين الداخل والخارج، وبين الإمكان والتجلي، حيث يصبح كل فعل فكري وكل شعور وجداني جزءًا من عملية مستمرة لإعادة تشكيل الذات واللغة والمعنى معًا. وتبعًا لذلك؛ فإن المعنى في هذه اللحظة كائن حيّ، متحرك، يتشكل في صمت المضمر، كالنار التي تحترق في قلب الخشب قبل أن تنفجر لهبًا، أو كبذرة صغيرة تخفي في تضاعيفها غابة محتملة من الرموز والدلالات، تنتظر الضوء والماء والوقت لتخرج إلى الحياة. بالأخص حين يعمل الحيز اللغوي كعتبة وسيطة لترميز العالم الباطني؛ في الموضع الذي يتآزر فيه التجلي الليبيدي libidinal والتجلي الأنوي Egoic ليكوّنا ما يُعرف بتمثيل الشيء، أي الصورة النفسية للعالم الظاهري. غير أن الدوالّ الدون - لغوية لا تنفصل دلاليًا انفصالًا تامًا عن اللغة؛ لأن سيرورة العمل الذهني تقوم على تداخل منظوماتها الأساسية. وفي المقابل، تشير الدوالّ الضمن - لغوية إلى العلامات التي تؤدي وظائفها النفسية داخل مجال اللغة ذاته، متجسدة في الصيغ الكلامية المختلفة، ويُنظر إلى الدالّ الأصلي بوصفه الأصل الأسطوري الذي تنحدر منه هذه الدوالّ جميعًا(غياث المرزوق، الدال، 2009، 22.) تمثّلُ هذه الرّحلة على الصعيد الفلسفي، الانتقال من الإمكان إلى التجلي، حيث يصبح المعنى نتاجًا للتفاعل بين الذات والوجود، بين الداخل والخارج، بين الفكرة والعاطفة؛ غير أن البذرة الخفية هنا ليست فكرة أولية، فحسب، بل هي مركز إنتاج معرفي وجداني، يقيم علاقة متشابكة بين الإدراك الذهني والتجربة الوجدانية، بين الخيال الذي يوسع حدود الممكن، والذاكرة التي تعيد تشكيل الخبرة وتمنحها ثباتًا نسبيًا. ويكونُ المعنى في هذا الفضاء، مفتوحًا على التأويل، قابلًا للتّمدد والتشكل، غير مقيد بعد بالقواعد اللغوية أو القيود الاجتماعية. في حين يصبح الإمكان الدلالي أفقًا معرفيًا يسمح للذات بالتحرر من اللغة الصريحة، وبناء تجربة رمزية ومعرفية متكاملة. كما أن هذه الرحلة تعكس طبيعة الإنسان كخالق للمعنى؛ إذ لا ينتظر فقط ما يقدمه الواقع أو اللغة، بل يشارك في إنتاجه داخليًا، ويعيد تشكيله باستمرار، ليصبح كل معنى ناتجًا عن شبكة معقدة من العمليات الداخلية التي تتفاعل فيها المشاعر مع الفكر، والتجربة مع التأمل، والذاكرة مع الخيال. ويمكنُ من منظور أدبي وفلسفي تصوير، رحلة المعنى هذه بأنها سفر مستمر من الظل إلى الضوء، ومن الغياب إلى التجلي، حيث يتحرك المعنى من مكانه الخفي في المضمر ليصبح إمكانًا دلاليًا حيًّا، قابلًا لأن يظهر في اللغة، في الفعل، أو في التعبير الرمزي. إنها مرحلة تأسيسية، تمثل الأصل الفعلي لكل إنتاج معرفي أو إبداعي، حيث تتلاقى العناصر الداخلية للذات لتصنع تجربة إنسانية غنية، تسمح للوعي بأن يكون فاعلًا في صناعة الواقع الرمزي والمعنوي، لا مجرد متلقٍ له.تتحوّلُ البذرةُ الخفيَّةُ بهذه الطّريقة، إلى فضاء متجدد للإمكان الدلالي، حيث يولد

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

المعنى من الداخل، يزدهر في صمت التجربة، ويجد في النهاية صيغته اللغوية أو الرمزية التي تعكس تفاعل الذات مع العالم، وتغدو لغة التعبير وسيلة لإبراز ما أُنتج داخليًا في قلب المضمر، بحيث يصبح المعنى حركةً مستمرة بين الإمكان والتجلي، وبين الداخل واللغة، وبين الذات والوجود. وغني عن البيان، أن رحلة المعنى تبدأ في أعماق المضمر الخفي، حيث تختبئ بذور الفكر والوجدان، وتتوارى إمكانات الوعي في صمت لا يظهر إلا عندما تستدعيها لحظة التجلي. يكونُ المعنى في هذه الأعماق، في حالة إمكان دائم، غير مكتمل، وغير مستقر، كالحبسة الأولى للنهر قبل أن يجد مجراه، أو كبذرة تخفي في تضاعيفها غابة محتملة من الرموز والدلالات، تنتظر الضوء والحرارة والوقت لتخرج إلى الوجود. وتتجلَّى لغة المسكوت عنه في ضوء ذلك، من حيث السياق الدلالي في بنية اللغة الضمنية، وفي المسافة الغائبة بين المتن، وما يستتر في خفائه بحاجز خطاب الغيبة، الذي من شأنه أن يبعث على التمكُّن من الانتباه، واستحكامه من المتلقي وراء ظل المتن؛ إذ تتجه البنية اللغوية التي تتجسد فيها الصورة إلى اتخاذ أشكال جديدة، أو مغايرة للأشكال التي ألفناها في الصورة القديمة، والدخول في صيغ استبداليه، أو إحلالية، يحل فيها الشيء مكان الشيء، لا تقوم على إحلال غير المألوف محل المتعين المدرك"(كمال أبو ديب، 1989، 80). وليست هذه المرحلة مرحلةً تمهيدية للغة، ولا انتقالًا شكليًا من الصمت إلى الكلام، بل هي فضاءٌ إنتاجيٌّ حيويٌّ ومعقّد، حيث تتقاطع عناصر الوعي الذاتي لتخلق نواة للمعنى، وتفتح أفقًا للتجربة المعرفية والوجدانية، استنادًا إلى هذه الإرشادات:

أ- **الذات المركبة/ صانع المعنى**

تتحوّلُ الذّات في هذا الفضاء، إلى فاعل مركب ومعقد، تتداخل فيه مستويات الإدراك المختلفة: البنية الإدراكية التي تضبط التصوّرات وتنسّق بينها، والحسّ الشعوري الذي يمدّها بالحركية والكثافة، والطاقة التمثيلية التي تفكّ ارتباطها بالمباشر وتفتحها على أفق الإمكان، والرصيد التجريبي المتراكم الذي يحتفظ بآثار العيش ويعيد سبكها داخل انتظام متماسك. هنا، لا تكون الذات متلقية للخبرة أو اللغة، بل تصبح صانعة للمعنى، مبدعة في إعادة تركيب الخبرة وترتيب الحضور الداخلي للمعنى، مستكشفة إمكانياته وحدوده قبل أن يجد صيغته اللغوية النهائية، والحال هذه، "ليس في وسعنا أن نطلق حكمًا صائبًا على الكناية المشهدية إلا إذا [....] حاولنا استبدال كلّ عنصر من عناصرها، على حدةٍ، بمقطع صوتي أو بلفظٍ يمكن لذلك العنصر أن يمثّله بشكل أو بآخر. فالألفاظُ التي نُظِمَتْ وِفقَ هذا النسقِ لم تعد مفرداتٍ **جوفاءَ** أو ذواتِ دلالةٍ **باهتة**، بل استقرتْ بوصفِها صياغاتٍ شعريةً تفيضُ **ببهاءِ التشكيلِ وعمقِ الدلالة** في أبهى صورها. إذ إن الحلم هو أحجية مصوَّرة من هذا النوع (فرويد، 1969، 382.) . **وهو ما يشير إلى أن الذات في الفضاء التأويلي والفني تتحول إلى صانع للمعنى**، حيث تتشابك أنساق الاستيعاب والشعور والتصوير والاستحضار في إعادة تشكيل التجربة والكشف عن طاقاتها الدلالية الممكنة، **وبالموازاة، فإن كل عنصر من عناصر الصورة أو التكْنية التصويرية يجب النظر إليه بشكل مستقل ليُستخرج منه المعنى**، مما يجعل اللغة أو الصورة الشعرية نتاجًا حيًا للتجربة الداخلية، لا انعكاسًا خارجيًا للواقع. ومن هنا، يصبح تشبيه الحلم بالأحجية المصوّرة دالًا بعمق؛ فكما لا يمكن الحكم على التكْنية التصويرية إلا عبر تفكيك عناصرها، ومحاولة تمثيل كل عنصر بصوت أو

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

لفظ محتمل، كذلك لا تتجلّى دلالة المعنى إلا حين يمرّ عبر اختبار التحويل من الصورة الداخلية إلى الأثر اللغوي؛ لأن ما يحدث في الحلم هو عين ما يحدث في فعل الإبداع والتأويل: الصورة لا تكون خالية من المعنى، بل محمّلة بدلالة سابقة على اللغة، وحين تُستدعى إلى اللفظ لا تفقد كثافتها، بل تتحوّل إلى عبارة شعرية أو رمزية تجمع بين الجمالية والدلالة القصوى.

يستحيلُ الحلمُ، ضمن هذا المنظور، أنطولوجيا مُصغّرة لفاعليةِ الذاتِ التأويلية؛ إذ يغدو فضاءً برزخيًا تتماهى فيه الصورةُ بالرغبةِ والذاكرة، في حالةٍ سابقةٍ على التبلورِ اللساني. هنا، لا ينهضُ اللفظُ بوصفه مَصْدراً للمنى، بل يتجلّى **كاثرٍ ارتداديٍّ** له، وما اللغةُ إلا **المدى الرمزيُّ** لما استقرَّ في مكمنِ الوعي. وبذلك تتطابقُ وحدةُ المسارِ بين الذاتِ المبدعةِ وبين **الاشتغالِ الدلالي** للحلم؛ فكلاهما يُبرهنُ على أنَّ الدلالةَ ليست معطىً ساكنًا، بل هي **مخاضٌ تحويليٌّ** يَنقلُ المضمرَ إلى حَيّزِ العبارة، مع الإبقاءِ على **فائضٍ دلاليٍّ** يمتنعُ عن الاستنفادِ داخلَ القول كل تجربة وجدانية، وكل فكرة ناشئة، تتحول إلى عنصر فاعل في بناء الفضاء الدلالي، حيث يلتقي العالم الداخلي بالظاهر، وينبض المعنى كما لو كان كيانًا حيًّا متحركًا، يكتسب طاقته من تفاعلات الذات مع نفسها ومع محيطها. والمعنى في هذه المرحلة حالة ديناميكية مستمرة، غير ثابتة ولا محددة، قابلة للتمدد والتغيير مع كل وميض إدراكي أو لحظة شعورية. إنه إمكان مفتوح للابتكار والتشكيل، يعيد ترتيب ذاته باستمرار، ليتولى لاحقًا للغة دور إظهار ما نشأ داخليًا في قلب المضمر، بحيث تبدو اللغة مرآة لثمرة رحلة طويلة من التفاعل الداخلي للوعي، قبل أن تتجسد في الرموز أو التعبيرات اللفظية.

ب - الإمكان الدلالي/ فضاء الحرية والتأويل

يمثل الإمكان الدلالي الأفق الذي يتحرك فيه المعنى بحرية قبل أن يتحول إلى رمز لغوي محدد. إنه الفضاء المفتوح الذي يسمح للذات باختبار حدود المعنى، واستكشاف الاحتمالات، وتجربة العلاقات بين الداخل والخارج، بين الفكر والشعور، بين الذاكرة والتجربة الحاضرة. في هذا الفضاء، يصبح المعنى قابلًا للتوسع، مستعدًا للتشكل، متفاعلًا مع كل طبقة من وعي الذات، حيث يتحول كل شعور إلى دال محتمل، وكل فكرة إلى رمز داخلي قبل أن يُصاغ في اللغة أو الفعل.

وفي ضوء ذلك، يشق الإمكان الدلالي طريقه كفضاء مفتوح للمعنى، حيث تنطلق الذات لتستكشف إمكانياته غير المحدودة قبل أن يتحول إلى رمز لغوي أو فعلي نهائي. إنه عالم متحرك، تتفاعل فيه مختلف مستويات الإدراك، ويختبر المعنى فيه علاقته بالماضي والذاكرة، وبحاضر التجربة، وحتى بالآفاق المستقبلية المحتملة. هنا يصبح المعنى كيانًا حيًا، يستجيب للانفعالات الداخلية، ويتفاعل مع الرموز المبطنة في الذاكرة والإشارات الخفية للتجربة، فلا يقتصر دوره على التعبير النهائي، بل يمتد ليصبح وسيلة لفهم الذات وتطويرها. كل شعور وفكرة وتأمل داخلي يتحول إلى دال مرن، قابل للتشكل والتغيير، متفاعل مع طبقات الوعي المختلفة، ويشكل جزءًا من نسق متكامل يولد صياغة رمزية للواقع الداخلي قبل أن يظهر في اللغة أو الفعل. يتحوّلُ الإمكانُ الدّلاليُّ في هذا الإطار، إلى فضاء إنتاجي متجدد، يمنح الذات الحرية الإبداعية والتأملية، ويحول التجربة الداخلية إلى مادة خصبة لإنتاج المعنى، لتتحولَ اللغةُ

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

وأطيافُها الرمزيةُ إلى **امتدادٍ كينونيٍّ**، يتناغمُ مع **مَوَرِ الوعيِ الباطني**، ويظلُّ **أفقًا مأهولاً** بممكناتِ القراءة، ومشرعًا على **ديمومةِ الصيرورةِ الإبداعية**.

يمكن تصوير الإمكان الدلالي كـ حقل مفتوح، تنبت فيه الأفكار كالزرع الذي ينتظر المطر، وتترابط الرموز كأغصان شجرة تتشابك لتشكل شبكة متينة من المعنى. تحملُ كل بذرة في هذا الحقل إمكانات متعددة للتأويل، وكل تجربة داخلية تمثل نواة لتجربة معرفية مستقبلية، حيث تتجلى الإمكانيات اللانهائية للوعي واللغة.وتبعًا لذلك، يمثل الإمكان الدلالي في الفضاء السيميائي والأفقي التأويلي موقعًا معرفيًا يتجاوز ببعده التعريفي حدود العلامة اللغوية المحدودة، ويمتد ليشمل طيفًا واسعًا من الدلالات المحتملة قبل أن يتبلور كرمز لغوي أو فعلي نهائي. يمكن أن نتخيل هذا الإمكان كـ حقل مفتوح تتلاقى فيه التجارب الذهنية والنفسية، وتنتظم فيه الرموز في نسق من العلاقات التي تتجاوز البنية الأصيلة للنص إلى ما يمكن أن يطلق عليه أفق التأويل اللامحدود، حيث لا يكتفي المعنى بانغلاقه على نفسه داخل النسق اللساني بل يفتح على إمكانيات شبكية متعددة للقراءة والإدراك.

تُعد النظرية البنيوية لدي سوسير حجر الزاوية في فهم العلامة ككيان ثنائي يتكوّن من الدال (signifier) والمدلول (signified) في اتحاد لا يمكن فصله، وهو ما يؤكد أن العلاقة بينهما ليست طبيعية أو جوهرية، بل اعتباطية ضمن نظام اللغة، بحيث يصبح المعنى ناتجًا عن نظام من العلاقات الداخلية بدل أن يكون مرآة مباشرة للواقع الخارجي .في حين يطور رولان بارث Roland Barthes هذه الرؤية البنيوية، ليحوّل النص نفسه إلى مجال مفتوح للدلالات المتعددة، مؤكدًا أن النص لا يستنفد معناه في حدود واحدة أو مرجعية واحدة؛ بل هو "نسيج من الاقتباسات التي يُمثلها المعنى" بالنسبة إلى القارئ، ما يجعل النص في حركة دائمة نحو تفعيل إمكانيات متعددة للدلالة في مضمون ما جاء في قوله: **"النص ليس تجمّعًا لمعانٍ متجاورة، بل مسارًا دلاليًا يتخطّى ثبات المعنى، ويتحقّق عبر فعل تفكيك العلامات وإعادة ترتيب علاقاتها" يؤكّدُ بارث** في هذا النص أن النص لا يقتصر على إظهار تنوّع الدلالة، بل يعمل بوصفه بنية مولِّدة، تُنتج اختلاف المعنى في صميم تشكّله، وتفتح أفقه على قابلية لا نهائية للتأويل، حيث يتحرك المعنى في فضاء متشابك من العلامات، متجاوزًا الثبات الظاهر للمفاهيم المجردة، ومفتوحًا على تداخل مستمر بين الدلالات والتأويلات، ليصبح النص بذلك فضاءً ديناميكيًا لإنتاج المعنى المتعدد والمتغير، وليس حاضنة لمعانٍ منفصلة ومستقرة، ومن هذه النظرة ينشأ فهم أن الإمكان الدلالي لا يقتصر على سياق سكوني لعلامات جاهزة، بل هو فضاء يولِّد دلالاته من خلال منظومة العلاقات بين الدال والمدلول، وبين مستويات اللغة المتعددة. في هذا الفضاء، تصبح العلامات نفسها غير مستقرة، وتتحول الدلالات بحسب الحركة الداخلية للنص وعلاقته بالذات القارئة، وتتحقق عبر السياق والتباين والقراءة المتفاعلة.أما بول ريكور Paul Ricœur فيطرح منظورًا هرمنيوطيقيًا يتجاوز حدود الإغلاق البنيوي للنص، معتبرًا التأويل عملية فلسفية عميقة تهدف إلى الكشف عن المعنى واستحضاره ضمن أفق التجربة الإنسانية الوجودية، حيث يصبح النص وسيطًا لتفاعل الذات مع الواقع والوعي والمعنى؛ وبالنسبة إلى ريكور، الهدف الأساسي للهرمينوطيقا هو **"تحقيق فهم مشترك بين الذات والآخر"** عبر النص، حيث يصبح الفهم تحرّي

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

الصلة بين الذات والقيمة الدلالية والعالم .يؤكد ريكور أن اللغة ليست نظامًا رمزيًا تقليديًا متفقًا عليه ضمن المجتمعات، بل فضاءً حيًا يتشكل عبر التفاعل الإنساني ويحوّل التجربة إلى معنى؛ بل هي وسيلة لفتح آفاق الوعي الإنساني، لذلك فإن التأويل لا يتم على مستوى الدلالة الظاهرة فقط، بل يتجاوز ذلك إلى تفسير الدوافع والبُنى العميقة التي تُنتج المعنى. يطرحُ في هذا السياق، مفهوم هرمينوطيقا الشك (hermeneutics of suspicion)، الذي يختلف عن التأويل التقليدي بكونه فضاءً لكشف المعاني المختفية والمبطّنة داخل النص، مستلهمًا مدرسة التشكيك التي يرى فيها ريكور أنّ النّص قد يحمل أكثر ممّا يظهر على سطحه.يمثّلُ الإمكان الدلالي في النص فضاءً مفتوحًا يتجاوز حدود العلامة اللغوية الثابتة، ويتيح للمعنى الحركة والتشكل قبل أن يتجسد في رمز لغوي محدد. في هذا الحقل، لا يكون المعنى محصورًا ضمن دلالة وحيدة أو ثبات سطحي، بل يتحرك في شبكة مترابطة من العلاقات بين سديم البداءة، والدال والمدلول، حيث تتفاعل العلامات مع التجربة الداخلية للذات ومع السياق الاجتماعي والثقافي. كل فكرة، وكل شعور، وكل تجربة وجدانية، تتحول إلى دال محتمل، قابل للتوسع والتشكل، ليصبح النص فضاءً ديناميكيًا للتجاوز الدلالي والتأويل المستمر.وفقًا لسوسير، اللغة نظام من العلامات الثنائية signifierوsignified، حيث لا يكون المعنى ثابتًا أو طبيعيًا، بل يولد من التباين بين العلامات ضمن النسق اللغوي – بحسب مفاهيم سوسير - هذا يجعل الحقل الدلالي ليس وعاء للمعاني، فحسب، بل فضاءً حيًا يتيح للذات أن تختبر حدود المعنى وتوسعها، ويهيئ الأرضية لتعدد التأويلات الممكنة. وهو ما أكده بارت Roland Barthes في مقال له: **"من العمل الأدبي إلى النص 1971"**، حين اعتبر أن النص لا يقتصر على كونه تجمُّعًا من المعاني المنفصلة، بل يشكل عبورًا وتجاوزًا للدلالات يتم من خلال تفكيك العلامات واستكشاف علاقاتها المتشابكة؛ حينئذ يصبح النص بهذا المعنى مجالًا متحركًا، تتشكل فيه طبقات المعنى تدريجيًا، ويتيح للقارئ التفاعل النقدي مع النص لإعادة إنتاج المعنى ضمن أفق لا نهائي.يقدم بول ريكور في كتابه: نظرية التأويل – الخطاب وفائض المعنى، منظورًا هرمنيوطيقيًا يتجاوز الإغلاق البنيوي للنص، حيث يرى أن اللغة حاملة للخبرة الإنسانية، ممتلئة بالإشارات والاحتمالات غير المباشرة، ولا يمكن فهمها إلا عبر عملية تأويلية مستمرة، وفي هذا السياق، تتعدى اللغة وظيفتها كأداة لنقل المعنى المباشر لتصبح فضاءً حيًا لإنتاج الدلالات وإبداعها، حيث تتفاعل العلامات مع تجربة الذات الداخلية، ومع البُنى الرمزية والاجتماعية والثقافية، فتتسع إمكاناتها التأويلية لتشكل أفقًا غير محدود من المعنى المتحرك والمتجدد. وبذلك، يربط ريكور بين التحليل البنيوي للنص، الذي يركز على العلامات وعلاقاتها كما عند سوسير وبارث، وبين الرؤية التأويلية الوجودية، ليكون التأويل عملية فلسفية تكشف عن العمق الكامن للغة، وإمكاناتها في إنتاج المعنى الحي، المتعدد، والمتغير.يصبحُ الإمكانُ الدّلاليُّ في هذا الإطار، فضاءً مركزيًا لامتلاء اللغة، حيث تتلاقى عناصر الفكر والشعور والتجربة، وتتداخل العلامات مع السياق والذاكرة والتجربة الحاضرة. تتجاوزُ اللغة هنا حدود الانعكاس السلبي للواقع، لتصبح وسيطًا فاعلًا لإنتاج المعنى وإعادة تشكيل تجربة الذات، وفضاءً ديناميكيًا لإعادة صياغة الرموز والدلالات. كل قراءة، وكل تفاعل مع النص، يخلق طبقة جديدة من التأويل، بما يحافظ على انفتاح النص على الحركة

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

والتحول، متناغمًا مع الإمكان الدلالي وتدفق الوعي الداخلي.بهذا المعنى، يمكن القول إن الإمكان الدلالي، وامتلاء اللغة، وعملية التأويل عند ريكور، تتكامل مع رؤى سوسير وبارث لتشكيل رؤية نقدية شاملة للنص: نص كحقل مفتوح للعلامات، لغة حية ممتلئة بالاحتمالات، وتأويل مستمر يعيد إنتاج المعنى في تفاعل دائم بين الذات والنص والعالم.ويتحوّلُ على هذا الأساس، الإمكان الدلالي إلى فضاء إنتاجي معرفي تتفاعل فيه النصوص مع القارئ والرموز المتعددة للعلامات، ويتجاوزُ متجاوزًا كونه مرحلة انتقالية قبل استقرار المعنى. لا يقتصرُ في هذا الفضاء، المعنى على الإشارة إلى مرجعية خارجية ثابتة، بل يتبلور من خلال الفعل التأويلي ذاته، الذي يمدّ النص بانفتاح على إمكانيات جديدة، ويكشف عن طبقات الدلالة الكامنة في عمقه، ويعيد توليدها داخل نسق متجدد من العلاقات المعرفية والوجودية.

وبذلك، يمكن القول إنّ **الإمكان الدلالي هو مساحة حيوية للتلاقح بين الدال والمدلول، الواقعي والرمزي، والظاهر والخفي. إنه المكان الذي ينفتح فيه النص على نفسه وعلى القارئ معًا**، في عملية دلالية مستمرة لا تعرف نهاية، بل تنتج معاني جديدة عبر كل قراءة وتفاعل نقدي وتأويلي. وهذا ما يجعل النص، في ضوء السيميائية البنيوية والهرمينوطيقا الوجودية، **حقلًا لا نهائيًا للمعنى، مفتوحًا على تعدد قراءات التأويل والإبداع الدلالي.**

ج – ارتحالُ الكمون/ من صمتِ الجوهرِ إلى إشراقِ الوعي

ليست الرحلة من المضمر إلى الإمكان الدلالي خطية أو محددة، بل هي رحلة متشابكة ومعقدة، تشبه النسق الداخلي للأحلام، أو حركة النهر تحت الأرض قبل أن يلتقي بالسطح. في هذه الرحلة، يتحول الصمت إلى لغة، واللاشكل إلى شكل، والمضمر إلى إمكان دلالي حيّ، قابل للتشكل، والتجلي، والتأويل. ويُولدُ المعنى هنا من الداخل، وينضج في الصمت، ثم يظهر في اللغة أو الرمز، في عملية مستمرة من التفاعل بين الذات والوجود. "وهكذا فإن لزوم قول كل شيء [في النص] يتبدد في تخييل كل ما قيل، بل هو يترك بلا صوت [معنى] أولئك الذين لهم شيء آخر يقولونه، أو قد يختارون ممارسته بخطاب آخر" (دافيد لوبروطون، 2019، ص 16.).

تتجاوز الذات في هذه المرحلة حدود دور المتلقي لتصبح مبدعًا للواقع الرمزي والمعنوي، إذ لا يُستقبل المعنى جاهزًا من الخارج، بل يُنتج داخليًا عبر شبكة متداخلة من العمليات النفسية والمعرفية. في هذا السياق، يختبر الإنسان حدود إمكانياته، ويعيد صوغ خبراته، ويُعيد تركيب تجاربه الرمزية بأسلوب فريد وفلسفي. تصبح اللغة مرآة للوعي الداخلي، والمعنى نتاجًا لتجربة مركّبة ومعقدة، وتتحول الذات إلى فاعل إبداعي يمتد بين الصمت والتعبير، وبين الداخل والخارج، وبين الإمكان والتجلي، ليصبح المعنى نفسه عملية متحرّكة وحية في فضاء الوعي، مؤسِّسًا لعلاقة حية وديناميكية بين الذات والوجود. فالصمت مثله مثل الإيماءة، أو الحركة، لا يجسد سكونية فُجائية للسان، وإنما تسجيلا فاعلا لاستعماله، إنه يدخل في التواصل بحصة متساوية مع اللغة... ذلك أن [الخطاب] لا يستطيع التخلي عن الصمت [المضمر]، على عكس هذا الأخير.

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

قائمة المراجع

المصادر:

عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، 1984

المراجع:

1. دافيد لوبروطون، الصمت، لغة المعنى والوجود، ترجمة فريد الزاهي، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 2019
2. سعاد بسناسي، الرّؤية السّرديّة وسؤال المعنى، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2025،
3. عبد الرحمن بدوي، منطق أرسطو، الجزء الأول، وكالة المطبوعات – الكويت، دار القلم، ط 1، 1980،
4. **فردينان دو سوسور**، محاضرات في اللسانيات العامة، ترجمة صالح القرمادي وآخرون، دار إفريقيا الشرق، 1987،
5. فرويد، تفسير الأحلام، ترجمة، مصطفى صفوان، دار المعارف، 1969
6. هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج "الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية"، ترجمة، جسين ناظم، وآخر، دار أيوا للنشر والتوزيع، 2007،
7. هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج "الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية"، ترجمة، جسين ناظم، وآخر،

المراجع الأجنبية:

Emile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, tome 2, ed, Gallimard,1974

الدوريات:

كمال أبو ديب، لغة الغياب في قصيدة الحداثة، مجلة فصول، ع 4/3، 1989،

المواقع الإلكترونية

غياث المرزوق، الدال، موقع معابر، الرابط، **https://2u.pw/KyRnGPER**

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
P- ISSN: 3007-3650 E- ISSN: 2706-8536
Journal of the College of Basic Education Vol.32 (No.137) 2026,pp.431-450

The Beginning of Meaning in the Implicit

Dr. Abdelkader Fidouh
Moulay Tahar University – Algeria
afidouh@hotmail.com

Abstract

This research explores the latent mechanisms of meaning formation within the nebulous zone that precedes linguistic utterance—a state termed the **"Nebula of Primacy"** (Sadeem al-Bada'ah). In this realm, meaning manifests as a latent semantic potentiality within consciousness before conforming to the constraints of the linguistic system. This phenomenological approach conceives the **"Implicit"** (Al-Mudmar) as a vital space where vision is engendered as an intuitive structure, weaving together emotion, memory, and imagination. Consequently, creativity becomes an authentic act of revelation that generates meaning prior to its articulation, liberating language from its instrumental function to become an illuminative ascent (Mi'raj) connecting the self with existence. By navigating an intellectual intersection that bridges Al-Jahiz's tradition of "proffered meanings" with Gadamerian hermeneutics and Peircean semiotics, the study asserts that understanding is a hermeneutic event arising from the fusion of the subjective horizon with that of the text. In this process, silence and the implicit emerge as active partners in discourse, serving as a mirror that reflects the mysteries of Being—mysteries that direct expression fails to encompass in their existential abundance.

Keywords: The Implicit, Nebula of Primacy, Cradle of Vision, Hermeneutics, Semantic Potentiality, Utterance, Semiotics, Manifestations of Meaning.